الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا ..

نظرت فى الطريقة التى يؤدى بها المسلمون عباداتهم فوجدتها متوافقة مع موقف المسلمين العام من تعاليم دينهم، ذلك الموقف المنطوى على الإهمال والإضاعة.

أمس القريب ودع المسلمون رمضان واستقبلوا أشهر الحج فهل استفادت الأمة من صيامها وهل ستستفيد من حجها؟؟

لقد كنت أضحك ضحكا مراً وأنا أسمع أغانى رمضان، والاستبشار بقدومه، والحزن لفراقه!

كنت موقنا أن المغنى مفطر، وأن المغنية لم تفكر يوما فى صيام!

كنت أسمع الألحان والأنغام وأنا أستغرب كيف تحول الدين إلى طبل وزمر وصياح ومجون.

كنت أعرف أن شهر الصيام والقيام قد غاضت منه معانيه الرفيعة، وحولته الطبائع المرضى إلى شهر طعام وشراب وتسال وألغاز وضجيج طويل أبعد ما يكون عن الجد والصدق.

وعرفت يقينا أن المسلمين حكموا على بعض تعاليم دينهم بالموت، وحكموا على البعض الآخر بالمسخ والتشويه.

إن الله لما شرع العبادات شرح الحكمة المقترنة بها، والثمرة المرجوة منها.

فاذا أديت هذه العبادات تأدية عقيمة أو صورية فإن هذه التأدية لا تزيد عن الإهمال والترك الا قليلا.

إذا كانت غاية الصوم التقوى كما قال الله تعالى: ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ [البقرة: ١٨٣] ثم جاء من صام ولم يستفد من طاعته التقوى المنشودة فما قيمة صومه؟

وإذا كانت الصلاة طهارة للقلب ووضاءة للخلق، وانتهاء عن المناكر، ثم جاء من يصلى دون أن يحقق فى روحه أو سلوكه شيئا من ذلك فما قيمة صلاته؟

نعم، ربما كان هذا الأداء دليلا على خيط باق يربط المسلمين بدينهم على نحو ما.. ويستطيع المربون أن يهذبوا هذه العلاقة، وينقوها من عللها.

وهذا صحيح.. وأحب أن أشير الى أن مراصد التبشير العربى تنشر صورا عن المجتمعات الاسلامية في رمضان، وتثبت إحصاءات عن عدد الصائمين ونسبتهم فى الأمة، وتستنتج من ذلك كم بقى على المسلمين لينسلخوا من دينهم نهائيا؟ كلما رأوا عدد المفطرين يزيد باطراد!

فهل يدرك ذلك المشايخ الخربو الذمم الذين يصدرون فتاوى عامة بالإفطار، لجماهير غفيرة من الناس، بعد أن يحرفوا الكلم من عواضعه، وبعد أن يغمضوا عيونهم عن الملابسات المحيطة بالسؤال والسائلين؟

أعجبنى عندما كنت فى الكويت – خلال رمضان – انى لم أر مجاهرا بفطر، فمن كشف سوأته رمي به فى السجون.

ليت شعرى لماذا لم يطبق ذلك النظام فى مصر؟ ولكن كم فى مصر من مفاسد اجتماعية تتطلب مبضع الجراح ليشفى ويكفى..؟

وها قد خرج المسلمون من رمضان لتطالعهم أشهر الحج:.

وأغلب عشاق الحج من الفقراء الذين لا تلزمهم الفريضة، ومع ذلك يزحمون موسمه!

وجمهور القادرين الواجدين مصروف القلب عن هذا الركن الجليل.

وتلك بعض نتائج الغزو الثقافى لبلادنا العليلة في المشارق والمغارب..

ومع هذا الحساب للمقبلين والمدبرين فإن الموسم العظيم يعج بالألوف المؤلفة.

وتعود بنا الذاكرة الى الماضي البعيد عندما كان الحج شعيرة حية من شعائر الإسلام الحى.

شعيرة تتقرر فيها سياسة المسلمين نحو أعدائهم، وتوجه هذا الفيضان البشرى من شتى الأجناس والألوان ليمحو ويثبت من صور الحياة ما يشاء!!

فى حجة مضت إبان العهد الأول، وقف علي بن أبي طالب يصك آذان المعتدين والمجرمين بهذا الانذار الالهى: ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ** ﴾ [التوبة: ٢].

لقد تحمل المسلمون الكثير من غدر خصومهم، وخبث مؤامرتهم، وطول تبجحهم!!

وها قد آن أوان القصاص والتأديب، وانتهت عهود المطاولة والتريث: ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة: ٣]

فهل يوجد اليوم بين الحكام المسلمين من يستغل الحشود المائجة يوم الحج الأكبر، ويلقي الخطبة نفسها التي ألقاها علي بن أبي طالب؟

إن الإسلام في خطر مقترب، ووجهه مكتئب!..

وكل يوم يمر تسقط من بنائه لبنة، ويضيع من أرضه قيراط، فهل يذهب الحجيج ويعودون، لتقام لهم الأحفال، وتزجى لهم التهاني، وتسند إلى أسمائهم ألقاب! وأمر المسلمين في إدبار، وتاريخهم المعاصر يلف به إطار من العار؟؟

أتلك هي الغاية من فريضة الحج؟

وذلك هو الربح الذي يحصله الحجاج لدينهم ودنياهم؟

كيف هوى المسلمون بشعائر دينهم الى هذا الدرك؟

ولحكمة عليا شاء الله أن تكون المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال في هذه المنطقة في الشرق الأوسط.

إنه في هذا الشرق درجت الديانات، وفيه تقع الأماكن المقدسة.

وفي هذا الشرق أقام الإسلام للعرب دولتهم الكبرى، وجعل منهم أمة مرموقة بعد أن لم يكونوا في التاريخ شيئا مذكورا.

لكن العرب خانوا تعاليم الإسلام عدة مرات فأصابهم من ضربات القدر، وخزي الأيام ما أصابهم!!

خانوه أول مرة في أواخر القرن الرابع الهجري عندما أوهنوا أمرهم، وتقطع بينهم، وتبعوا أهواءهم.

وتفرقوا شيعا فكل قبيلة فيها أمير المؤمنين ومنبر!!

عندئذ جاء أول فوج للصليبيين، واكتسح المقاومة الواهنة وأرخص الدماء في القدس المهزومة حتى خاضت في مجراها سنابك الخيل.

ولما كانت هذه البقاع من أرض الله لا تعنى العرب وحدهم، وإنما تعنى المسلمين من كل جنس وبلد، فإن فساد العرب أصلحته الأجناس الإسلامية الأخرى!!

فتقدم الأكراد والأتراك باسم الاسلام ونشلوا العرب من وهدتهم.

وما زالوا يقاتلون الصليبيين حتى أجلوهم عن المواطن التى احتلوها، وما زالوا كذلك يجالدون التتار حتى كسروا شوكتهم.

وعاد العرب والمسلمون الى فلسطين بعد ما طهرها الايمان المجرد والاخلاص لله والعمل لدينه.

وخان العرب الاسلام مرة ثانية في الأندلس، يوم غرقوا في الملاهى، وملأ أفواههم فخرا بعصبياتهم القبلية، ونزعاتهم العنصرية، ونسوا أن الاسلام محا كل هذه الدعاوى، وطمس مآثر الجاهلية، واستحيا قيم الايمان والفضيلة وحدها في موازين البشر.

فماذا كانت العقبى؟

لقد دخلوا بالاسلام أرض الأندلس، فلما جحدوه وتذاكروا عربوتهم ونبضت عروق الجاهلية في سيرتهم، طردوا من هذه الأرض شر طردة، وأقفرت منهم مغان طالما عمرت بشيبهم وشبابهم.

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر!

واليوم يعيد التاريخ نفسه، فهل نتعظ قبل أن تدور علينا رحاه فتطحننا كما طحنت من قبلنا من المفرطين واللاهين؟؟

إن القدس سقطت في يد اليهود .. والزحف الجديد يضمر في طواياه السود إبادة أمة وإزالة تاريخ.

والعرب في أوضاع الهزيمة التى وقع فيها من قبل أسلافهم المفرطون أولئك الذين انسحبوا من الأندلس، واندحروا أمام الصليبيين القدامى!!

نعم في الأوضاع نفسها!

فرقة بين الأمراء والرؤساء لا تجمع قلبا على قلب.

نهمة الى الشهوات هبطت من الكبار الى الصغار، وجعلت الكل يطلبون الدنيا بخسة، ويركضون وراء مآربها ركض الوحش فى البرية، بلا عقل ولا تقوى.

وزاد الطين بلة بلاء جد على التاريخ العربى، لم يعرف يوما فى صحائفه الأولى!!

هذا البلاء، قوم يجردون العروبة من الاسلام، ويقطعونها عن أبيها الروحى والفكرى والحضارى والعسكرى، ويريدون إفهام الأجيال الناشئة أنهم أولاد أنف الناقة وتابط شرا وأمثالهم من قادة الفكر فى عالم الأساطير!!

﴿ **أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ** ﴾ [هود: ١٨، ١٩]

إننى أحذر العرب من هذه البلايا التى تجمعت عليهم!!.

وما أرى الوقت يتسع للتلكؤ فى العودة الى الله..

ولا يزال يرن فى سمعى قول صديقى المجاهد المسلم محمد على الغتيت «إن الشعوب التى لا تبصر بعيونها سوف تحتاج الى هذه العيون لتبكى طويلا».

* * *

إماتة الاسلام هى الهدف الأخير

لم ينقض عهد النبوة الخاتمة والخلافة الراشدة حتى كانت الوية الإسلام ترفرف على جنبات الشرق الأوسط كله، وحتى استطاعت شعوبه العانية ان تكسر أغلال الأسر الرومانى والفارسى وتتنفس الصعداء بعد ذل طويل!!

أجل تحررت مصر والشام بعد استعباد قرون، وتحررت عن اليمين والشمائل أقطار رحبة فى أفريقيا وآسيا.

واستوطن الاسلام هذه البلاد كلها بعد ما ارتضاه أهلها ودخلوا فيه أفواجا وجماهير.

والشرق الأوسط وما حوله مجمع القارات المعمورة، ومهد الديانات والحضارات الكبرى، ومهب رياح التغيير فى العالم كله.

والأمة المهيمنة عليه تملك مفاتيح الشرق والغرب، وتقدر على فرض نفسها فى كل مجال، أو على القليل أمة لا يجوز تجاهلها وإسقاط حسابها!!

فكيف إذا اعتنقت رسالة سيالة تمتد من قلب الى قلب، وتنتقل من شبر إلى شبر؟

إن هذا الوضع يتيح لها فرصا رائعة، ويرشحها لمكانة مرموقة، ويلقى بين أصابعها بإمكانات ضخمة!!

وآباؤنا الأوائل عندما طووا راية الروم والفرس، وخلفوهما في هذه البقاع رسخوا اقدامهم فيها بالعدل والمرحمة ، وجعلوا منها منطلقا لأداء رسالتهم الكبرى فكانوا يصدرون للعالم الشرائع والمثل، والاخلاق والافكار كما نصدر نحن الآن النفط والقطن وأشياء أخرى!!

ولا ريب أن هذه المكانة الجغرافية كما تمنح الكثير تكلف الكثير، وبقدر ما تعين الأصدقاء تؤلب الأعداء.

ومن هنا فان خصوم الاسلام بذلوا على مر العصور جهودا متتابعة لحرمانه من هذه الميزة، وشنوا الحروب صريحة وغادرة لزلزلة هذا الكيان وزحزحة أصحابه عنه.

وإننا لنكون على حظ كبير من الغباوة إذا ظننا أعداءنا سيتركوننا نحيا بديننا كما نشاء فى تلك الأوطان الطيبة الغالية . .

وما الحروب الصليبية فى صورتها القديمة ثم فى صورتها الحديثة الا ترجمة دقيقة لرغبات خصومنا فى الخلاص منا ومن ديننا . .

إنهم يودون أولا الاستيلاء ولو على موضع قدم!! فاذا تم لهم ذلك كان المعبر الذى تنساح منه جيوشهم فى أحشائنا لتجهز علينا بوسيلة أو بأخرى!!!

وليس المهم أن يكون هذا الموضع مصر أو الشام أو كليهما أو قطعة منهما .

المهم هو الحصول على رأس الجسر الذى يمر منه العدوان!!

وليس المهم أن يكون هذا الهجوم عسكرى الطابع، فقد تكون الأساليب الأخرى أجدى وأنكى وإن طال المدى!!

ولا نستطيع هنا التأريخ للمحاولات الثقافية والاقتصادية والسياسية التى سلكها الغرب للقضاء علينا، وإنما نكتفى بآخر تلك المحاولات وأدهاها وأقساها .

لقد قفز الأوروبيون فى الأعصار الحديثة إلى مقدمة القافلة البشرية واستغلوا أخطاء المسلمين وخطاياهم فنحوهم بقوة عن مكان القيادة، وتولوا هم تلك الوظيفة!!

وشهدت الدنيا الأمة العربية والاسلامية تنحدر الى السفح بعد ما كانت فى القمة، كما شهدت الأوروبيين الذين كانوا عميانا فى القرون الأولى يتأنقون فى مدنيتهم الجديدة، ويدلون بها على الآخرين!!

ومن السفه أن ألوم خصمى على مهارته وتفريطى، لقد كنا وما زلنا سبب ما ألمَّ بنا من كوارث!!

وفى قيادة الأوروبيين للعالم أخذوا يضعون الخطط فى أناة ودهاء للقضاء على خصومهم الأقدمين، وضمان بقائهم الى آخر الدهر قادة الدنيا وسادتها!

ولكن كيف والدهر قلب؟ وللحضارات والدول أعمار كما للأفراد!

هنا شرع العقل الاستعمارى الذكى يفكر، ويقلب الأمر على وجوهه، ويحتال للبلاء قبل وقوعه .

من أين يمكن أن يجئ الخطر، وكيف يتم تلافيه من الآن؟؟

لقد تألفت لجنة دولية بأمر «السير هنرى كامبل باترمان» رئيس الوزارة

البريطانية، وتمثلت فيها كبريات الدول المستعمرة، واستمع أعضاؤها الى الرئيس البريطانى وهو يقول: «إن الامبراطوريات تتكون وتنمو وتقوى، ثم تستقر حينا من الدهر، ثم تبدأ طريقها الى الغروب رويدا رويدا، ثم تتلاشى وتزول.

والتاريخ مليء بهذه الأطوار والأدوار التى انطبقت على شتى الأمم والنهضات، دون استثناء.

فهناك امبراطوريات روما وأثينا والهند والصين، وقبلها بابل وآشور ومصر.

فهل لديكم أسباب أو وسائل تجنبنا هذا المصير، وتحول دون انهيار الاستعمار الأوروبى بعد ما بلغ ذروته اليوم؟

لقد أصبحت أوروبا قارة قديمة، استنفدت مواردها، وحالت معالمها بينما الآخر لا يزال فى شبابه يتطلع إلى مزيد من العلم والتنظيم والرفاهية.

هذه مهمتكم أيها السادة وعلى نجاحها يتوقف رخاؤنا وتبقى سيطرتنا».

ونحن نلحظ أن السياسى البريطانى تعمد ألا يذكر فى الدول القديمة الغاربة العرب أو الترك.

كما نلحظ أنه ينوه بفرص التقدم والوثوب المتكاثرة فى أرجاء العالم الآخر، هذا العالم المحذور النهوض واليقظة!!

ترى ماذا يعنى بالضبط؟

على كل حال لقد باشرت اللجنة مهمتها بعد ما استمعت إلى توجيهات مؤلفها الكبير ودرست الوسائل المستطاعة لحماية الاستعمار الغربى وتوفير ضمانات البقاء الأبدى له، ثم انتهت فى تقريرها الذى صدر سنة ١٩٠٧ إلى ما يأتى:

أولا: استبعاد أى خطر على السلطان الأوروبى من المستعمرات التى تحررت بعد ما غلب عليها البيض مثل استراليا وكندا وجنوب أفريقيا وغيرها.. والتقليل من خطر استقلال الهند والملايو والهند الصينية وغيرها لأن المشكلات الدينية والطائفية ستشغل هذه البلدان، إن هى استقلت، لأجل غير محدود.

والتقليل كذلك من خطر منح الاستقلال للمستعمرات الأفريقية أو البلدان المبعثرة فى المحيطين الأطلسى والهادى، وذلك لتطرفها وانعزالها الجغرافى.

ثانيا : وهنا الجزء المهم فى التقرير – ترى اللجنة أن الخطر على الاستعمار يكمن فى منطقة الشرق الأوسط، فهذه المنطقة مهد الحضارات والديانات ويسكنها شعب تتوافر له من وحدة تاريخه ولغته ومثله وآماله كل مقومات التجمع والترابط علاوة على ثرواته الطبيعية ونزعة أهله إلى التحرر.

ولمواجهة ذلك الخطر اقترحت اللجنة على الدول ذات المصالح المشتركة ما يأتى:

(أ) السيطرة على البحر الأبيض لأنه الشريان الحيوى للاستعمار والقنطرة الموصلة بين الشرق والغرب..

(ب) استبقاء هذه المنطقة مجزأة، وفرض التفكك المستمر على شعبها ومنع كل محاولة لعودة هذا الشعب إلى وحدته الطبيعية، والحيلولة بأى طريقة دون أى ارتياط فكرى أو روحى أو تاريخى يسودها.

(جـ) فصل الجزء الأفريقى من هذه المنطقة عن جزئها الآسيوى بإقامة حاجز بشرى قوى وغريب يملأ الجسر البرى الواصل بين القارتين، بحيث يشكل فى هذه المنطقة وقريبا من برزخ السويس قوة صديقة للاستعمار الأوروبى وعدوا لأهل البلاد..!!

هذه هى مقررات لجنة باترمان (١) .

وظاهر أنها طوفت بالعالم كله تتحسس مصادر الخطر على الاستعمار فلم تجد أمة تخشى نهضتها، ويخاف على مستقبل الاستعمار من يقظتها، إلا الأمة الإسلامية، أو بطريق التحديد العرب الذين هم دماغ الإسلام وقلبه.

فوضعت أصبع الاستعمار على مكمن القلق، وقالت له: عليك به!!

وعندى أن اللجنة الموقرة لم تأت بجديد حين استشارت أحقاد العالم

---

(١) من محاضرات معهد الإمامة «الاستعمار الحديث» للأستاذ عبد الفتاح أبو الفضل بتصرف يسير.

الصليبى على الاسلام وأمته، أنها أكدت مشاعر كانت منتشرة مستقرة فى كل مكان.

إن الجديد الذى جاءت به هو ما اقترحته على قومها من تبنى أمانى اليهود، والعمل على ضرب العالم الاسلامى بالصهيونية الحديثة!!

وقد استجاب الساسة الأوروبيون والأمريكيون – وبين الجميع قاسم مشترك – لهذه الدعوة.

فمهدت انجلترا بإصدار وعد بلفور مقررة إنشاء وطن قومى لليهود.

ثم ثنت أمريكا ببسط وصايتها وحمايتها على الدولة المفتعلة قائلة: إن إسرائيل خلقت لتبقى!!.

وظاهر أن اليد التى تضربنا يد صليبية، وأن الآلة التى استعملت فى ضربنا يهودية..

ومن العبث الكلام فيما يحرك اليد الآثمة من حقد وغضب وخسة وعدوان..

وإنما يجب الكلام فى الطريقة التى تم بها غرس هذه الشوكة فى جانبنا، والطريقة التى تستبقى بها هذه الشوكة لتؤدى وظيفتها القذرة.

إن المعارك العسكرية التى أدت إلى قيام إسرائيل هى أتفه ما هيأه الاستعمار لبلوغ هدفه..

أما ما سبق هذه المعارك ولاحقها من تدابير ثقافية، واجتماعية، واقتصادية، وسياسية، فهو العمل الحقيقى الذى أنتج قيام إسرائيل.

استطاع الاستعمار تقسيم العرب وحدهم إلى نحو عشرين دولة وإمارة..

وجعل لكل شلو من أشلاء المنطقة المحروبة قومية خاصة وعلما ملونا!!..

ولقد سئل وزير مصرى من أربعين سنة ماذا صنع لفلسطين؟ فقال: إنه مسئول عن مصر لا غير.

أى لا عروبة ولا إسلام!!

فهل يريد الاستعمار تمهيدا أفضل من ذلك؟.

فلما أمكن توحيد العرب وتجميع شملهم كان الاستعمار قد سرق الإيمان من قلوبهم وصفوفهم، فإذا هم يجتمعون دون عقيدة وغاية.

فلا جرم أن تهزمهم أية جماعة يلمها إيمان حار!!

وتجمع الأصفار لا ينتج عددا، ولا يجلب مددا..

إن الدين من وراء اليد الضاربة والآلة المستخدمة، فكيف يفقده المدافعون عن أنفسهم وكيانهم؟.

يقول الدكتور «وايزمان» فى مذكراته: «ينسبون إلى فضل الحصول على تصريح «بلفور» ولكن الحقيقة أن السبب الرئيسى لفوز اليهود بتأييد بريطانيا لهم والموافقة على إنشاء وطن قومى فى فلسطين بجمع شتاتهم هو إيمان الإنجليز بالعهد القديم وتأثرهم بتعاليمه، وأن رجالا من أمثال بلفور وتشرشل ولويد جورج كانوا متدينين من أعماق قلوبهم ومؤمنين بما ورد فى هذا الكتاب.

وقد نظروا إلينا معشر اليهود على أننا نمثل فكرة يعتقدونها اعتقادا تاما»[1].

هذا هو تدين الساسة الذين حاربونا وهو نموذج لتدين ترومان وجونسون وغيرهما..

فهل آمن الساسة العرب بمقدساتهم الإسلامية إيمان هؤلاء بمقدساتهم اليهودية والنصرانية؟؟

كلا.. كلا، بل أكثر هؤلاء ما قرأ القرآن، ولا اطلع على السنة، ولا درس تاريخ سلفه الأول..

إن الغرض من إنشاء إسرائيل، كما رأيت قتل دين، وتمزيق أتباع! وإذا لم يعبىء العرب قواهم المادية والأدبية على هذا الوعى فلن يزدادوا من النصر إلا بعدا..

* * *

(١) قارن بين تواضع هذا الداهية من بناة إسرائيل بالعلم والتضحية، وبين كبرياء الزعماء العرب الذين تصدروا بلا موهبة ولا معرفة، ولا حماس لدين.

حـــديث ذو شـــجون ..

أفدت كثيرا من الأيام التى قضيتها فى السودان، وشكرت لجامعة أم درمان الإسلامية فرص اللقاء التى يسرتها لى مع طلاب المعرفة فى العاصمة والأقاليم.

إن السودان ينمو بقوة، وملامحه الإسلامية تتضح وتكتمل، واعتقادى أنه كفء لملء الفراغ الدينى وسط القارة التى استيقظت من رقادها، وإن كان ذلك يحتاج إلى جهود ضخمة، فإن حدود السودان المترامية تصله بثمانى دول، بعضها يعد من خمسين سنة ليكون مركز الاستعمار التبشيرى، ومصدر الإزعاج والتعويق لكل حركات التحرر فى القارة !!

ولذلك فإنى بقدر ما سررت لطلائع النهضة الإسلامية التى وجدتها أحسست بوادر قلق[1] لما قد يتمخض عنه المستقبل.

إن الجبهات المعادية للإسلام شديدة الخبث محذورة الشر، ولا بد من التيقظ لها حتى لا نلدغ ونحن غارون مسترسلون.

والسودانيون عرب أصلاء، بل هم أوغل فى العروبة وأدنى إلى ملامحها وشمائلها من مجتمعات عربية أخرى فى افريقيا وآسيا..

وقد تسألنى: لماذا أصدر هذا الحكم الغريب؟

والجواب: أسلوب المعاملة بين الحاكم والمحكوم..

رأيت شابا ينادى أحد الوزراء باسمه المجرد، وغلبتنى الدهشة أول الأمر، ولكنى كتمت ما بى حتى أعرف ما سوف يتم، وتلفت الوزير عندما سمع اسمه، دون أن يبدو عليه شىء، وجرى حوار سريع فى الموضوع الذى نودى من أجله.. ثم ذهب كل إلى حال سبيله..

ونظرت إلى صديق لى نظرة تنطوى على الدهشة، فقال لى مبتسما:

هنا يستطيع أى مواطن أن يقول للسيد إسماعيل الأزهرى رئيس مجلس السيادة: أزهرى! ماذا فعلت فى موضوع كذا؟

---

(١) نشرت هذا المقال بمجلة لواء الإسلام، قبل وقوع الثورة العسكرية ببضعة شهور، كان الاتجاه العام الرسمى والشعبى إلى إقامة دستور إسلامى، ونرجو أن يظل هذا الاتجاه قائما.

وسيجيبه الرئيس بما عنده دون نكر أو هجر!!

لقد زرت بلادا عربية كثيرة، ومنذ شهرين اثنين كنت فى الكويت، وهناك يستطيع رجل الشارع أن ينادى صاحب أكبر منصب دولة بقوله: أبا فلان..

ويجيب أبو فلان هذا – سواء أكان وزيرا أكبر أو أصغر – يجيب داعيه بمودة وبشر..

إن بقايا الإسلام لا تزال لاصقة بأفئدتهم..

أما فى مصر فقد ألغيت الألقاب على الورق فقط، والويل لمن ينادى كاتبا أو إداريا باسمه أو كنيته.

إن حاجته لن تقضى، وما أحسبه ينصرف سالما..

إننا ألغينا الألقاب لنعيد الصحة النفسية إلى جماعات أكلها الذل والتفاوت، لكن العلل التى يتأذى منها الأحرار لا تزال دونها قلاع وأسوار!

والتقيت بأحد الدعاة العائدين من جنوب السودان، وبادرته بالسؤال: كيف الحال هنالك؟ فقال: فى طريق الاستقرار وإن كان مشعلو الفتنة لم يزولوا..

واستوضحته الخبر، فعرفت أن جماعات المبشرين – وهم يعملون وفق سياسة مرسومة – وضعت بذور شر مستطير فى هذه البقاع.

إن الانجليز فى أثناء حكمهم عزلوا الجنوب عن الشمال عزلا تاما، ومكنوا الكنائس الغربية أن تتولى كل شىء فى المجالين الثقافى والاجتماعى.

فلما استرد السودان حريته وجد نفسه أمام شعور طافح بالبغضاء من الجماعات التى صنعها أولئك المبشرون.

ولكن ما جبل عليه المسلمون من احترام للحريات الدينية جعلهم يلقون الأمر الواقع بشىء من الرضا، ووضعوا خطتهم على أساس تعاون شتى الأديان فى مجتمع نذوب فيه الفوارق المفتعلة..

غير أن المبشرين رفضوا هذه الخطة، وأعلنوا الحرب عليها وعلى منفذيها، وفجروا ثورة جائرة، وقتلوا عدة آلاف من المسلمين بينهم جمهور من النساء والأطفال..

قلت: وماذا يبغون؟ قال: إن عدد المسيحيين هناك ربما بلغ ثلاثمائة ألف من جملة السكان وهم نحو ثلاثة ملايين يتبعون عقائد بدائية وثنية.

ويظهر أن المشرفين على التبشير يخشون أن يتحول الوثنيون إلى الإسلام عندما يتيسر الاختلاط بين المسلمين والجنوبيين، ومن هنا يصبح المنتصرون قلة، ويفقدون الحديث باسم الجنوب كله.

ومنعا لهذه النتيجة أعلنوا التمرد وكان رجال التبشير يلقنونهم أن الإسلام دين التفرقة العنصرية، وأنه هو الذى خطف آباءهم وباعهم فى أسواق النخاسة، وأنه سيوقع بهم فى الغد ما وقع لآبائهم فى الماضى..

على أن العصابات المتمردة قضى عليها، وأمكن منع الأمداد التى تجيئها من وراء الحدود وأمكن إشعار هؤلاء المخدوعين أن المسلمين لا يأكلون لحوم البشر كما كانوا يسمعون فى عظات الآحاد من المرسلين الأوروبيين.

قلت، وأنا أهمس إلى نفسى: الله المسئول أن يجنب السودان مؤامرات الاستعمار الحديث..

إن هذه المؤامرات أغرقت نيجيريا فى برك الدم، وقد قضت على زعامات إسلامية غارعة، ولا تزال جراحات التدخل الأجنبى تسيل، وهى مصممة على ضرب الإسلام فى صميمه، والله وحده يعلم كيف ستستقر الأمور هناك.

والتقيت فى أم درمان برجلين من زعماء المسلمين فى «ماليزيا» وهششت لمرآهما وقلت: أتعرف على أحوال إخواننا فى الشرق الأقصى، فإن الشقة بيننا وبينهم بعيدة.

وكان الرجلان قد اطلعا على بعض ما أكتب فكان حرصهما على شرح الأمور لى بعض ما يطوفان البلاد الإسلامية من أجله.

واستمعت إليهما وكان الأسى ينشر ضبابه فى أقطار نفسى رويدا رويدا، فلما أتما حديثهما خيم الصمت على مجلسنا وسرحنا مع خيالات قابضة.

كنت أعلم أن المسلمين فى الملايو كثرة فإذا هم اليوم قلة يبلغ ٤٠٪ من جملة السكان فكيف حدث هذا ؟

يرجع ذلك إلى أمرين مهمين:

الأول: أن الصينيين يهاجرون إلى البلاد فى أعداد كبيرة، ويكسبون الجنسية الملاوية بسرعة.

والآخر: أن التناسل بين الصينيين يزداد دون عوائق، والأسرة الصينية العادية تتكون فى المتوسط من خمسة عشر شخصا.

وليس غريبا فى البيئة الصينية أن يتبع الأم عشرون[1] ولدا لها !!!

والكثرة تفرض وجودها المادى والأدبى طوعا أو كرها..

والمسلمون شرعوا ينكمشون من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية فإن التجارة تكاد تكون حكرا على الصينيين، وقد استطاع هؤلاء وفق نظام ربوى رهيب أن يشددوا الخناق على الفلاحين المسلمين، وأن يستولوا على نتاج الأرض بالثمن البخس.

وقلت لمحدثى: لكن رئيس حكومتكم مسلم، وأظن أنه دعا إلى مؤتمر إسلامى عالمى يعقد خلال هذه الأيام.

فقال لى فى لهجة مشوبة بالمرارة: أن حكومتنا تنفذ السياسة الانجليزية بدقة، وهى شديدة الالتزام لخطتها ووجهتها.

ولعلك تعلم أن الحكومات الأوروبية متفقة على معاداة الإسلام.

غير أن للانجليز أسلوبا خاصا فى قتل هذا الدين يحقق غرضهم دون ضجة.. إنهم يقطعون شريانا حيويا له ثم يدعونه ينزف فى صمت ويموت على مهل.

أو هم يرسلون عليه غازا مميتا كالغاز الذى يصيب المغتسل داخل الحمام. فإذا هو يدخل فى غيبوبة مخدرة لذيذة إلى أن يقضى نحبه، كذلك يفعل الانجليز مع الإسلام، إنهم يقتلونه بين أيدى أهله، وأهله مسحورون، وقد يبتسمون وهم يموتون !!

أما قصة المؤتمر الإسلامى الذى تتحدث عنه، فهى لا تعدو قصة تمثيلية متقنة الإخراج سائرة مع الهدف المرسوم لا تنحرف عنه قليلا ولا كثيرا.

ما قيمة مؤتمر لا يناقش قضايا الموت والحياة لأمتنا الكبرى، ويشغل نفسه برؤية الهلال واختلاف المطالع، كأن هذه المسألة قضية المصير، مع أن أركان الإيمان وبقاء أمته فى مهب الرياح.

---

(١) تأمل على ضوء هذا أثر الدعوة إلى تحديد النسل.

إننا فى ماليزيا نرى هذه المؤتمرات دعاية انتخابية يحسنها الحكام المنتسبون إلى الإسلام الخارجون على أحكامه[1].

وطويت هذا الحديث الملىء بالقصص فقد كان على أن أسافر إلى «الأبيض» لألقى بعض المحاضرات فى هذه المدينة الكبيرة.

وأكتشفت وأنا أستمع إلى الأسئلة المعروضة على أن هناك حزبا قد تألف فى العاصمة وامتدت له بعض الفروع فى الأقاليم يدعو إلى ترك السنة والاكتفاء بالقرآن الكريم.

فقلت للجمهور: هل وصلتكم أنتم الآخرين هذه الدعوة؟ إنها انتشرت بيننا حينا ثم تلاشت، وكنت أحسب صاحبها مجنونا، ولكنى وجدت هذا النشاط المريب قد امتد إلى الهند شرقا، وإلى تونس غربا، وان كتبا عديدة تحمل جراثيمه، فعلمت أن مؤتمرات التبشير والاستشراق المتخصصة فى إفساد الفكر الإسلامى مستخفية وراء هؤلاء الأشخاص المخدوعين أو الخداعين..

وإذا كانت هذه المحاولات السمجة تموت فى أماكنها لتفاهة موضوعها، وانصراف الكافة عنها، فإن تكرار ظهورها هنا وهناك يدل على أن أعداء الإسلام لا تنتهى لهم لجاجة..

وأنهم ما يزالون يجدون مطايا لهم فى كل بلد، فاحذروا أيها الإخوة تلك المطية الجديدة التى ظهرت فى بلدكم..!!

واستوقفنى مبنى شامخ، مديد على الأرض، ذاهب فى الأفق. يتوسط المدينة الكبيرة، ويرى من أغلب شوارعها.

فتساءلت: ما هذا المبنى؟

فقيل لى: الكنيسة التى شادها المسيحيون أخيرا !!

فقلت فى نفسى: تلك سياستهم فى ربوع العالم الإسلامى كله، يبنون المعابد، لا لأداء الشعائر الدينية فقط، بل لإظهار المسيحية وكأنها الدين الغالب الذى يضع طابعه على الأرض فى رسوخ واعتداد بالنفس دون أى اكتراث بمشاعر الكثرة الموجودة التى تعتنق دينا آخر.

---

(١) نشر هذا المقال قبل انعقاد المؤتمر بالفعل، ولعل ما بذل – بعد – فى توجيهه كان محاولة لنفع المسلمين به..

ثم خاطبت رفيقى : إنها لا شك تتسع لجمهور كثيف من المصلين ! .. كم نسبة المسيحيين هنا فى السكان ؟

فقـال يبلغون ٢٪ !!

فقلت : حسنا، لقد بنيت كما لو كان السكان ٤٠٪ لعل فى ذلك ما يخرس بعثات التبشير التى تتهم المسلمين بالتعصب .

لكل ، هل يسكتون ؟

لا أتوقع، فإن ضعف المسلمين المزرى سيسمح للألسنة الكذوب أن تفترى عشرات التهم، أولها الحيف على الآخرين !!

ولن يجد ضعيف نصفة فى عالم يسوده منطق الغاب ونهم الذئاب .

* * *